

تاتار القرم

شعب

المسألة التاريخية

ترجمة : تاتاري مسلم يعيش في تركيا

■ ■ « قصة أبشع مذبححة في التاريخ تمت في صمت وتحت تعقيم إعلامي ، أبيد فيها شعب مسلم دون أن يلوث الجناة أيديهم بدمائه » « تنفيذ أغرب حكم في شعب كامل بنفيه وإزالة حضارته من الوجود » .. ■ ■

في فجر يوم ١٨ مايو (أيار) ١٩٤٤م اقتحم البوليس السري السوفييتي (NKVD) أو ما يسمى الآن (KGB) المدجج بالأسلحة الرشاشة ، فجأة وبدون سابق إنذار بيوت شعب تاتار القرم في القرى والمدن وأخرجهم من بيوتهم إلى حيث قطارات البضائع الطويلة كانت في الانتظار ، ليحشر فيها شعب يزيد تعداده على ربع مليون مسلم ، واستغرقت عملية شحن الشعب كله يوماً كاملاً .

كانت عائشة طفلة في السادسة من عمرها عندما أوقظت من نومها فوجدت أهلها في فزع شديد يحاولون جمع بعض الحاجيات القليلة ، وحملوا الطفلة الصغيرة على عجل ، وكانت مكبرات الصوت في الخارج تلعب بأوامر لا تفهم منها شيئاً سوى الخروج فوراً .

وجدت الجيران وأهل الشارع يصطفون أمام إرشاشات المصوبة إليهم . وانضمت عائلة عائشة سيتموراتوفا أي (سيد مراد) إلى صفوف المقهورين حيث أمروا بترك ما حملوه معهم على الأرض ، ثم سيقن الأفواج إلى العربات التي كانت تختفي في ضباب الفجر بعد امتلائها .

تقول عائشة :

وبعد رحلة إلى قرية مجاورة وجدنا أنفسنا في محطة السكك الحديدية حيث كانت عربات البضاعة تُحسّر بالبشر وتغلق عليهم من الخارج فتختفي الأصوات الثكلى التي أعيأها البحث عن ضاع في زحام الرعب والمفاجأة . نساء واطفال وشيوخ ورجال يكسدون في صورة مهينة دون أن يتمكن أحد من حمل شيء من ملابس أو طعام .

وسارت القطارات إلى حيث لا يدرون أياماً وليالي ، وأسابيع ، ولا تغف لقطارات إلا للتزود بالفحم والماء وتفتح أبواب العربات لإخراج الموتى . لقد تناثرت جثث الشعب التتاري المسلم على جانبي الخط الحديدي الممتد من القرم إلى أواسط آسيا ، ولطالما سمعت عائشة عويل الأمهات وصراخ الأطفال الجوعى . فقد تبعثرت الأسر في عربات وقطارات مختلفة . فمنهم من دفع في عربة وأطفاله في عربة أخرى ولا يدري إن كانت زوجته مع أطفالها أم دفعت هي الأخرى في قطار آخر . مات الشيوخ والأطفال من شدة تكدر العربات التي ظلت تسير ليلاً ونهاراً مدة شهر كامل . واستشرى التيفوس وفك بالناس فتكأ ذريعاً ، وكانت تلقى الجثث من نوافذ القطار الضيقة بأعلى العربات . كثيرون ماتوا جوعاً وعطشاً . المرضى وكبار السن تساقطوا في الأيام الأولى من الرحلة إلى المجهول .

وتقول عائشة :

إنني علمت بعد أن كبرت وصرت أعي ما حل بنا ، أنه خرجت من قريتنا ثلاثون أسرة لم يصل منها إلى أواسط آسيا سوى بقايا خمس عائلات .

ولدت عائشة في القرم ، ورحلت إلى أوزبكستان هي وأمها العجوز وأختها وإخوتها الأربعة ، وقد نشئت الجميع في مناطق مختلفة من أوزبكستان . وهي لا تستطيع أن تعود إلى وطنها القرم : فقد حكم على شعبها بالنفي الجماعي بتهمة التعاون مع العدو النازي أثناء احتلاله للقرم في الحرب العالمية الثانية . وسيظل الحكم نافذاً ، ومن غير المسموح لأحد من بقايا شعب القرم أن يعود إلى وطنه . لقد وزعوا على المزارع الجماعية في أماكن متفرقة ، واختفى الشعب التتاري القرمي في وسط سهوب آسيا ، وطويت صفحته في صمت .

لقد فقد ٤٦٪ من هذا الشعب المسلم في عملية التهجير القسري . وأسر زعمائهم ووضعوا في السجون ولا يزالون فيها حتى الآن دون أن يدافع عنهم إنسان أو ترفع أية دولة إسلامية صوتها للإفراج عنهم ، في الوقت الذي تقوم فيه الدنيا ولا تقعد إذا تأخر الاتحاد السوفييتي في صرف تاشيرات خروج لأبناء الشعب المختار المدلل (اليهود) .

لقد دفع الياس بأحد القطار إلى الهرب من وسط آسيا عائداً إلى القرم - وهذه جريمة ..

فممنوع على الشعب أن يعود إلى وطنه - وذهب إلى قريته وأشعل في نفسه النار ليقلت انظار العالم لقضية شعب ، ونجح في ذلك . فقد ظهرت الصحف الغربية في احد ايام صيف عام ١٩٧٨م وفيها نبا الشاب التاتاري الذي احرق نفسه في احد ميادين قرى القرم . وعند ذلك فقط بدأت القصة تعرف بعد (٣٤) سنة للرأي العام العالمي . وظهرت الماساة . وإذا كان اعتقال شعب كامل ونفيه عن وطنه بهذه الطريقة الوحشية التي ادت إلى هلاك ٤٠٪ منه يعتبر عملاً منافياً لابسط القواعد الإنسانية . فإن الأغرب من ذلك هي عملية اخرى لا تقل عن الأولى وحشية ، فيعد ترحيل هذا الشعب المتكودسراً عن عيابه ، اشتعلت الحرائق في ميادين قرى ومدن القرم لحرق كل الكتب والمجلدات والآثار والثقافة التاتارية . لقد حرق في ذلك اليوم كل ما هو مكتوب باللغة التاتارية القرمية (وهي غير الفروع التاتارية الأخرى) فاليوم لا توجد ورقة واحدة مطبوعة باللغة التاتارية القرمية فيما عدا جريدة الحزب التي سمحوا بنشرها في أويزكستان أربع مرات في الاسبوع وتسمى « بيرق ليخين » منذ عام ١٩٥٧م .

تقول عائشة :

« في القرم كنا نستعمل الحرف العربي لكتابة لغتنا ، ثم استبدلوا به الحرف اللاتيني ثم الحرف السيرليك ، وهو الحرف الذي يكتب به جميع المسلمين الآن في الاتحاد السوفييتي . وبهذه الطريقة انفصل الجيل الحالي ليس فقط عن تراثه وماضيه بل وعن بقية العالم الإسلامي . وفي هذا الحريق الكبير لم يترددوا في حرق ما وصلت إليه أيديهم من الكتب الأدبية وغيرها ، وحتى القرآن الكريم الذي يعرفون مدى قدسيته لدى المسلمين لم يترددوا في حرقه ، ودمرت جميع المساجد ، وهذا التصرف ليس بمستغرب منهم ، ولكن العجيب هو حرق المقابر ، ثم غيرت جميع

اسماء القرى والمدن التاتارية ، ورفعت منها جميع الآثار التاريخية او الثقافية التي تدل على أنه سكن هنا مرة شعب تاتاري .

وباختصار فقد ازيل كل ما يشير أو يدل على الشعب التاتاري ، وحتى في التقارير الرسمية والإحصاءات وغيرها لا تعترف الدولة بوجود مثل هذا الشعب .

يمكن أن يباد شعب ولكن تبقى آثاره تدل عليه . أما أن يباد الشعب وتباد حضارته وتراثه ولغته ودينه ولا يبقى منه ما يدل عليه ، فهذا هو البلوغ في القهر والإبادة ، وللحكام الروس خبرة في ذلك ، فقد سبق لهم عند احتلالهم لسيبيريا أن طمسوا ثقافة وحضارة سكان هذه البلاد ، بحيث لا تعرف عنها شيئاً في أيامنا هذه ، وكان سيبريا صحراء جرداء لم تسكن من قبلهم .

ولكن الشعب التاتاري القرمي يأبى أن يموت ، فهو يكافح في سبيل البقاء ، ويدعو إخوانه المسلمين للتعرف على قضيته ونشرها ورفعها إلى المحافل العالية والدولية والمطالبة بالإفراج عن زعمائه المسجونين .

وإن الاتهام الجائر للشعب التاتاري بالتعاون مع الألمان ، كان يمكن أن تعرف حقيقته بإجراء محاكمة تعاقب المذنب . أما أن يعاقب الشعب كاملاً بنسائه السنات وأطفاله الأبرياء ، وحتى جنوده الشجعان الذين قاتلوا الألمان ومنحروا أوسمة سوفيتية حملها بعضهم معه إلى المنفى ، فهذا أمر يتجاوز الحد في التعسف والطغيان .

ولكن هناك دافع حقيقي وراء ذلك الإجراء غير الإنساني ، فرسبا طالما هفا قلبها للقرم منذ أيام القيصرية ، فممن أن احتلت كاترين القرم عام ١٧٩٣م شرع الروس في تنفيذ سياسة « القرم بدون تاتاره » ، ولتكون قاعدتهم البحرية في البحر الأسود ، ونقطة للقفز والتوسع إلى المياه الدافئة .

ولنتقرب من الشعب التاتاري شعب خائن متعاون مع الألمان ، فعادوا عن الشعب الأفغاني ، مع أي المان تعاون ؟ وما الذنب الذي اقترفه حتى يُهجر من وطنه وتحرق قراه

وتستعمل لإبادته كل أنواع المحرمات من الأسلحة ، وكل وسائل الإبادة الجماعية ؟ تقول الأخت المسلمة عائشة :

« إنني أجد كل مسلم على وجه هذه الأرض مسؤولاً يوم الحشر ماذا فعلت بالموافقة إخوانه . إن أبسط شيء ، الإنكار باللسان ، بالكتابة ، بإرسال برقيات الاحتجاج أو رسائل الاستنكار إلى كل مسؤول سوفييتي ، إلى السفارات المنتشرة في كل أنحاء العالم ، إلى الأمم المتحدة ، منظمة العمل الدولية ، لجنة حقوق الإنسان ، محكمة العدل الدولية وغيرها من المنظمات ، إن ما حدث في القرم ويتكرر حدوثه في أفغانستان ، جعل السؤال الهيب يتبادر إلى ذهني : من الذي عليه الدور بعد ذلك ؟ » .

لقد دخل الألمان إلى أوكرانيا ، وكان من الشعب الأوكراني بعض الضالعين مع الألمان ، ودخلوا روسيا وكان من الروس من هو ضالع مع الألمان ، هذا يحدث في كل شعب وخاصة في أوقات الحروب ، ومع ذلك لم يعاقب الشعب الأوكراني كله أو غيره من الشعوب التي تعاون بعض أفرادها مع الألماني الغازي ، ولكن في حالة الشعب التاتاري كان الأمر وسيلة فقط لتنفيذ سياسة طالما رنت إليها روسيا منذ زمن بعيد « القرم بدون التاتار » .

إن الأطفال الذين ولدوا في المنفى يرسلون الرسائل إلى المسؤولين يقولون لهم : نحن ولدنا في غير بلدنا وليس لنا خيار في ذلك ، ولكن بلادي وبلاد آبائي وأجدادي هي القرم التي منها لغتي وتراثي وقصمي وحيالي . إن موسى محمد عاد إلى القرم عام ١٩٧٥م فاعتقل وحوكم وحكم عليه بستينين مع الأشغال ، وبعد الستينين عاد إلى القرم مرة ثانية ، وعندما علم بقدمهم لاعتقاله ثانية قال :

إن الوسيلة الوحيدة لعدم مغادرة القرم هي أن أموت ، وكان أن صب على نفسه البترول وأشعل النار أمام الشرطة ومن جاؤوا لاعتقاله وإمام ابنه البالغ ١١ سنة . لقد فضل الموت في القرم على أن يعيش في المنفى . ونحن لا نتفق مع موسى في هذا العمل

المخالف للدين ، ذلك ان غاية ما يملكه خصومه قتله وقد لا يفلحون في ذلك ، ولكن هذه الحادثة تبين مدى إصرار أهل القرم على العودة إلى ديارهم .

تقول عائشة :

لقد عشت أيام الدراسة وأنا أحلم أن أكون دارة للتاريخ ، فلطالما نعتونا بالخونة وبالشعب المتأخر في الوقت الذي كنت أعرف فيه ان والدي مات في الجبهة وهو يدافع مع القوات السوفييتية ، وعمي أعدمه الألمان . وأنا كنت في السادسة عندما نفيت من وطني بتهمة لا أفهمها .

عندما أنهيت دراستي الثانوية توتيت ستالين وسُمح لنا بالدراسة في معاهد أعلى ، وبدأت بالدراسة في جامعة سمرقند ، وركزت على دراسة التاريخ وخصوصاً دراسة تاريخ شعب القرم . وتوجه وفد من رجال تاتار القرم إلى موسكو رافعين التماساً بعودة شعب القرم إلى بلاده . وفي عام ١٩٦٤م اختاروني لأشارك في حركة القرم الوطنية للعودة . وفي عام ١٩٦٥م أرسلت إلى موسكو كممثلة لشعب القرم لعرض التماسنا على المسؤولين وعدت ثانية عام ١٩٦٦م للغرض نفسه ، وبالطبع استرعى هذا النشاط انتباه الـ ك . ج . ب . وخصوصاً أنني مدرسة تاريخ في جامعة سمرقند .

فاعتقلت وأخذت إلى موسكو وحجزت لمدة سنة مع اثنتين أخريين من الوطنيين التاتار وحوكمتنا في محكمة سرية وحكم علينا . وفي أثناء المحاكمة سردت عليهم المأساة منذ كنت طفلة وما أتذكره حتى اللحظة . وظنوا انه سيسهل عليهم إرهابي وخصوصاً اني عاصرت المأساة وشاهدت فواجعها . وتحدثوا بإسهاب عن المساواة بين شعوب الاتحاد السوفييتي . وكان ردي انه لا مساواة حتى يعود شعبي إلى وطنه .

وعلى مدى أربع سنوات متوالية دخلت الامتحان لأتقدم للدراسات العليا في معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم في أوزبكستان ، وبعد المحاكمة سمح لي بدخول الدراسات العليا ولكن دون السماح بالانتباه منها طالما اني اعلم في الحركة القومية لشعب القرم .

فعددت الاجتماعات وارسلت رسائل الاحتجاج وجمعت المستندات والوثائق التي تثبت حقنا في العودة . وذهبت إلى القرم وجمعت ما أمكن من المستندات وناشدت المثقفين ومحبي الديمقراطية في موسكو .

وسرعان ما تدخلت الـ ك . ج . ب . فمنعت امتحاني للدكتوراه وارسلت لأمضي ثلاث سنوات بالسجن ، وأطلق سراحني عام ١٩٧٤م ومنذ ذلك التاريخ تقدمت إلى كل الهيئات الرسمية حتى إلى بريجنيف نفسه للسماح لي بإنهاء الدكتوراه وفي عام ١٩٧٦م أرسلت لي أكاديمية العلوم بأوزبكستان لتعلن انها تقبلني كطالبة في الدراسات العليا . وبكل بساطة حرمت من حقني في إكمال دراستي وفي الحرمان من مهنتي كدراسة تاريخ .

وفي عام ١٩٧٦م تقدمت بطلب للخروج من الاتحاد السوفييتي لإكمال دراستي بالخارج ولكن رفض طلبي ، وفي ٢١ يوليو (تموز) ١٩٧٨م أرسلت طلباً إلى بريجنيف قلت فيه : « إن الموت فقط يمكنه ان يريحني من ألوان الاضطهاد في الاتحاد السوفييتي » . والعجيب ان اجيب طلبي في خلال يومين . فقد هددت إن لم يُجِبْ طلبي بالخروج بحرق نفسي أمام أسوار الكرملين ، وقد جاء هذا التهديد وبدون قصد او معرفة مني في الوقت نفسه الذي أحرق فيه موسى محمد نفسه في القرم ، وفضل المسؤولين أمون الشربين ، وهو

خروجي من الاتحاد السوفييتي عن فضيحة الحرق التي سيتحدث عنها العالم . وتركت الاتحاد السوفييتي ببطاقة هجرة يهودية حيث إن اليهود فقط هم المسموح لهم بالهجرة .

ولا تصرف « فيزات » خروج للسياحة او العمل إلا لنسخة المختارة ، وليس من حقه انت ان تختار ان تخرج .

ودفعت عائشة مائة روبل ضريبة للهجرة ، وتنازلت عن جنسيتها وذهبت إلى فيينا ومنها إلى نيويورك وربما ظن الروس ان هذه النهاية مع قصة عائشة .

ولكن عائشة بقيت مصرة على ان تصبح مؤرخة لشعب مسلم صغير ، ولتقص لكل إنسان كيف دُمِر هذا الشعب ونُفي من وطنه وهو لا يزال يُصر على العودة .

إن التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد دمر الروس القرم في عهد بوتمكين ، وعند احتلالهم لها لم يتركوا شيئاً دون تدمير ، وما هم بكاربون الشيء نفسه عام ١٩٤٤م ولكن بدقة أكثر .

والشعب التاتاري لم يرضخ ولن يرضخ ، فلقد نشأت الحركة الوطنية بعد اجتماع الحزب الشيوعي العشرين عام ١٩٥٦م والذي أدان فيه خروتشوف الستالينية .

ونحن كشعب مسلم مضطهد نعتمد بعد الله على الرأي العام الإسلامي والرأي العام العالمي ، وندعو إخواننا في ديار الإسلام ان يعاونونا بالرأي والنشر والدفاع عن المسجونين من رعاة هذا الشعب المنكوب ، إن قضيتنا يجب ان يعرفها كل مسلم . لقد أقام العالم المتحضر جمعيات للمحافظة على أجناس الحيوانات والنباتات من الانقراض ، الا يحاول المسلمون المحافظة على جنس تاتار القرم من الانقراض إن لم يكن بدافع الاخوة في الدين فعلى الأقل بالدافع الذي يحرك هذه الجمعيات التي تحافظ على الأفيال والنمور والحيتان من الانقراض .

إنني أؤكد وأنا أدري بما يجري في داخل روسيا ، انه لو تحرك كل مسلم مسؤول في موقعه بالوسيلة التي يقدر عليها ، لفلعلنا الكثير لرفع الظلم عن هذا الشعب المسلم . حتى الأطفال من شعب التاتار شاركوا بإرسال الصور والبطاقات إلى الكرملين تطالب بالعودة إلى الوطن .

(مترجمة بتصرف عن مجلة امباكت العالمية التي تصدر في لندن - الجزء العاشر

